

الصلبييون والبحر الأحمر

في العهد الأيوبي والمملوكي

* د. راغب حامد البكر

تمهيد:

تعد السياسة التوسعية للصلبيية في المنطقة العربية من أبرز الدلائل التي تؤكد أن الحركة الصليبية حركة استعمارية قام بها الغرب الأوربي لغرض تحقيق مآربه الإستعمارية، ومن بينها الهيمنة على التجارة الدولية من خلال السيطرة على المنافذ التجارية الرئيسية، لاسيما وأن البحر الأحمر كان الجسر الذي يربط بين تجارة الشرق الأقصى وأوروبا منذ أقدم الأزمنة.

وعلى الرغم من محاولة المؤرخين الأوربيين المعاصرين منهم والمحدثين طمر حقيقة الحركة الصليبية من خلال التستر وراء الشعارات الدينية التي تقول أن غرض الغرب الأوربي آنذاك هو مساعدة أخوانهم البيزنطيين، وإستعادة الأراضي المقدسة في فلسطين (مملكة المسيح) وعلى هذا فقد عدوا الحروب الصليبية حربا عادلة ومقدسة ^(١).

أن النظرة الموضوعية للأحداث التي رافقت الحروب الصليبية تكشف لنا منذ البدء زيف تلك الإدعاءات التي روج لها الغربيون، فالأفعال الشائنة التي قام بها للصلبييون أثناء اجتياهم الأراضي البيزنطية والمتمثلة بأعمال القتل والسلب والنهب التي لم تتج منها حتى كنائس القسطنطينية ذاتها ^(٢) وإنشغال بعض قادة الحملة الصليبية الأولى بتأسيس إمارات لهم بأعالي بلاد الشام وتخليتهم عن مواصلة الزحف تجاه القدس لدليل آخر على ما كانوا يحملونه من نزعة إستعمارية توسعية، ومما يؤكد هذه النزعة إستمرارهم على هذا النهج بعد تحقيقهم لهدفهم المعلن والمزعوم والمتمثل باحتلال القدس، إذ عبرت سياساتهم فيما بعد عن حقيقة أطماعهم في فرض الهيمنة على المنطقة وإستنزاف إمكانياتها الإقتصادية، وفي مقدمة ذلك السيطرة على منافذ التجارة الدولية التي كانت آنذاك تخضع للسيادة العربية

* دكتور في قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة الموصل.

الإسلامية، وهذا يفسر لنا إلى حد كبير السبب الذي كان وراء الإستجابة السريعة للعدوان التجارية الإيطالية لدعوة البابا أوربان الثاني للمساهمة في الحروب الصليبية وما ترتب على تلك المساهمة من إمتيازات تجارية حصلت عليها في المناطق التي نُسّتولى عليها الصليبيون^(٣).

الأهمية التاريخية والإقتصادية للبحر الأحمر:-

يعد البحر الأحمر - ومنذ أقدم العصور - شرياناً حيويًا للمواصلات وسيلة للتبادل التجاري والحضاري بين البلدان المحيطة به من جانب، وبينها وبين بلدان الشرق الأقصى وبلدان الغرب من جانب آخر. وكان يطلق على البحر الأحمر طريق البخور منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وتعد تجارة البخور والطيب من أهم السلع التجارية آنذاك لكثرة إستخدامها في المعابد والكنائس والقصور في مدن حوض البحر المتوسط، وإزدهرت تجارة البحر الأحمر آنذاك نتيجة لأزدياد الطلب على التوابل والتحرير وغيرها من المنتجات الشرقية من قبل الأمبراطورية الرومانية^(٤).

ولقد أدرك الرومان الأهمية الإقتصادية للبحر الأحمر منذ إحتلال مصر عام ٣٠ ق.م فأصبحت سفنهم تمر عبر عباب البحر حتى قاربت غداة الإحتلال (١٢٠) سفينة^(٥)، وكان هذا بمثابة إعلان قيام سيادة روما على البحر الأحمر، وأدركوا كذلك أهمية بلاد الحجاز فأخذوا يتطلعون للسيطرة على الطريق التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر وذلك بالإستيلاء على اليمن التي كانت نقطة الإتصال بين الهند ومصر وبلاد الشام والعراق، واستغل الرومان تبعية شمال الحجاز للأنباط وسيروا حملتهم بقيادة اليوس جالوس في سنة ٢٤ ق.م^(٦)، أستعانوا فيها بأدلاء من الأنباط، إلا أن تلك المحاولة منيت بالفشل بسبب تضليل الإدلاء الذين رافقوا الحملة إذ كانت تربطهم مع المبنين علاقة تجارية قوية^(٧)، هذا فضلا عن مقاومة أهالي اليمن لهذه الحملة، ثم جرت محاولة ثانية من قبل النبطيين عندما حاولوا بسط نفوذهم على التجارة الموصلة إلى المحيط الهندي من خلال السيطرة على الطريق التجاري بين اليمن والحجاز عن طريق حلفائهم الأحباش الذين أحتلوا

اليمن عام ٣٥٠م، وقد تزجج جواد علي أن المصالح السياسية والتجارية للرومان والأحباش هي التي كانت عبء حملة تسار التي هاجمت مكة عام ٥٧٠م.

وقد أثار إحتلال الأحباش خلفاء البيزنطيين لليمن قلق ومخاوف الفرس الذين كانوا يطمحون بالإنفراد بتجارة الشرق الأقصى، فلما أستجد بهم أهل اليمن سارعوا بأرسال حملة أستولت على اليمن وطردت الأحباش والبيزنطيين^(٩). وبذلك أصبح البحر الأحمر ميدان صراع بين قوتين: الفرس الذين سيطروا على الركن الجنوبي الشرقي منه والبيزنطيين الذين سيطروا على السهل الغربي منه ويستمر هذا الصراع حتى مجيء الإسلام الذي أسدل الستار عليه^(١٠).

بظهور الإسلام بدأت صفحة جديدة في تاريخ البحر الأحمر وأصبحت السيادة فيه للعرب لقرون عديدة وأدركت السلطات العربية أهمية التجارة الأنفة الذكر بالإضافة لأهمية من ناحية اعتباره طريق الحج الى الحرمين الشريفين مكة والمدينة المنورة وعلى هذا حرصت السلطات العربية على الحفاظ على أمنه من خلال عدم السماح للأوروبيين بالإطلاع على أسرار تجارته والملاحة فيه، ومما يؤكد هذا أن الخليفة هارون ارشيد فكر أن يشق ترعة تصل البحرين المتوسط والأحمر، إلا أنه عدل عن فكرته عندما قيل له أن الرومان سيتخذون من ذلك منفذا لأرسال حملات ضد مكة والمدينة وقطع طريق الحج^(١١)، كذلك أخذت السلطات الإسلامية على عاتقها القضاء على أعمال القراصنة التي كان يقوم بها الأحباش^(١٢)، وهكذا أصبح البحر الأحمر آمنا لفترة طويلة ولم يحدث ما يعكر هدوءه حتى مجيء الصليبيين.

الصليبيون والبحر الأحمر:-

شهد البحر الأحمر نشاطا مميزا خلال الفترة التي سبقت الحروب الصليبية وأبانها ويعزى هذا النشاط إلى أن طريق التجارة البري الممتد من الصين إلى موانئ البحر الأسود وأوروبا كثيرا ما عانى من عدم إستقرار خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وذلك بسبب ظهور القبائل التركمانية على مسرح الأحداث السياسية هناك^(١٣).

وأدت الإضطرابات السياسية التي حدثت في جنوب العراق والخليج العربي الى تعطيل طريق التجارة بين الخليج العربي والمحيط الهندي مما أضعف دور بغداد التجاري والتي كانت بمثابة محطة تجارة كبرى لسلع الشرق الأقصى في طريقها إلى موانئ بلاد الشام والقسطنطينية ثم الغرب ^(١٤) وأدت هذه الأحداث إلى أن تعتمد التجارة الدولية في الفترة التي نحن بصدد دراستها على البحر الأحمر وموانئ مصر.

كانت أيلة (العقبة) والقلزم ^(١٥) واحدة من الموانئ التجارية المهمة على البحر الأحمر، ولا غرو فقد كانت أيلة والقلزم المنفذ الرئيسيين وبالعكس ^(١٦)، وترجع أهميتها هذه إلى كونها محطتان للحجاج المسلمين الذين كانوا يقدمون عن طريق أيلة والقلزم أو عن طريق عيذاب ^(١٧) وسواكن ^(١٨)، كذلك اشتهرت عدن بالتجارة لموقعها على مدخل البحر الأحمر الجنوبي ^(١٩)، ومن الملاحظ أن ميناء عيذاب لعب دورا هاما في التجارة الفاطمية الى الجنوب بسبب اشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة ثم استيلاء الصليبيين على أيلة ^(٢٠).

أدرك الصليبيون بعد احتلالهم للقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م الأهمية البالغة للبحر الأحمر بالنسبة للتجارة الدولية، فأخذوا يتطلعون للنفوذ إليه والتحكم به، ولا ريب أن هذا الهدف كان من بين الأسباب الرئيسية للحملات الصليبية إلى مصر لغرض الاستيلاء عليها والهيمنة بالتالي على تجارة البحر الأحمر باعتبار أن مصر كانت آنذاك المحطة الكبرى لتجارة الشرق الأقصى في طريقها إلى أوروبا ^(٢١).

يعد بلدوين الأول ملك بيت المقدس واضع الحجر الأساس لسياسة التوسيع الصليبي تجاه البحر الأحمر إذ وجه اهتمامه نحو الأقليم الواقع بين شبر النميت وخليج العقبة، ففي سنة ٥١٠هـ/١١١٦م استولى على أيلة التي اشتهرت بمينائها التجاري الواقع على خليج العقبة المطل على البحر الأحمر، ومن المعروف أن أيلة اشتهرت بنشاطها التجاري منذ أقدم العصور فكانت ديوانا للمكوس التي تفرض على البضائع القادمة من اليمن والهند والصين،

كما أُنِيا تحتكم في طريق الحج المصري والشامي^(٢٣)، ثم أُلُقِع بلدوين الى جزيرة
فرعون^(٢٤) وجعل في كلا الموضعتين حاميتين مزودتين بالمرائب وأنشأ في كل منها قلعة
محصنة^(٢٥)، وبهذا العمل حقق الصليبيون هدفين مهمين: الأول وهو

إقامة حاجز مانع بين بلاد الشام ومصر، والآخر هي أطلالتهم على البحر الأحمر مما يوفر
لهم فرصة التدخل والتأثير على تجارته.

استمر نفوذ الصليبيين على المسالك التجارية المؤدية للحجاز للفترة الواقعة بين
٥١٠ - ٥٨٥هـ / ١١١٦ - ١١٨٩م^(٢٦)، فكانوا خلال هذه الفترة يهددون التجارة العربية
وأصبحوا مصدر خطر وإزعاج على سواحل مصر والسودان وبلاد الحجاز، ويتضح هذا
من خلال الرسالة^(٢٧) التي بعث بها صلاح الدين الأيوبي الى الخليفة العباسي ببغداد
موضحا فيها الضرر الناجم عن إحتلال الصليبيين لأيلة وأتخاذها قاعدة لأعمالهم العدوانية
تجاه الأماكن الأتفة الذكر، التي كانت تعاني من إهمال الفاطميين لها في الفترة الأخيرة من
حكمهم.

تجدر الإشارة الى أن صلاح الدين أدرك منذ بداية حكمه لمصر سنة ٥٦٤هـ /

١١٦٩م أهمية إعادة بناء القوة البحرية لمصر للوقوف بوجه العدوان الصليبي^(٢٨)، وعندما
شعر بالخطر الصليبي الذي يهدد أمن البحر الأحمر أمر بصناعة مراكب حربية مفصلة في
دور صناعة السفن في القسطنطينية وأمر بنقل أجزائها الى الجبل الى ساحل البحر الأحمر
حيث تم تركيبها وشحنها بالرجال وأدوات القتال ثم مضى الى أيلة وحاصرها برا وبحرا
حتى تمكن من تحريرها سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(٢٩) "وملاها بالعدد والعدد، وحصنها بأهل
الجلاد والجلد"^(٣٠) لغرض تأمين طريق التجارة والحج، ويذهب أحد المؤرخين^(٣١) الى
القول بأن صلاح الدين عندما وجه أخاه تورانشاه الى اليمن سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م كان
الهدف من ذلك هو السيطرة على مداخل البحر الأحمر وحماية تجارته وحجابه من الخطر
الصليبي في سيناء وجنوب فلسطين، وأ، الأحداث التي جرت في المنطقة تؤكد الى حد ما
صحة هذا الرأي.

استغل الصليبيون حالة الفوضى السياسية التي عمت بلاد الشام أثر وفاة نور الدين

زنكي سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م وإنشغال صلاح الدين بذلك^(٣٢) بمحاولة استهدفت تحقيق

غرضين خطيرين:

أولاً: ضرب العرب في الصميم وذلك بغزو للحرمين الشريفين مكة والمدينة وقطع طريق الحج.

ثانياً: محاولة الهيمنة على تجارة البحر الأحمر بالإستيلاء على أيلة وعيذاب في شمال البحر الأحمر وعدن في الجنوب.

وكان رينالد شاييتون (ارنات) أمير أقطاع الكرك^(٣٣) صاحب الفكرة والمنفذ لها. وعرف رينالد بشدة حقه وعدائه للإسلام والمسلمين وكذلك حبه للمغامرة فوصفه أبو شامة^(٣٤) بأنه " أغدر الفرنجة، وأخبثها، وأفحصها عن الردى والرداء، وأبحثها وانقضها للمواثيق المحكمة والإيمان المبرمة، وأنكثها وأحنثها " وكان رينالد حين تملك حصن إقطاع الكرك الذي كان يتمتع باستير اتجبية هامة سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٧م أخذ يقترب أعمالا جائرة تجاه القوافل التجارية المارة بالقرب من حصنه وهي في طريقها بالقرب من بلاد الشام إلى مصر وبالعكس.

ويبدو أن حياة الأسر التي أمضاها رينالد في دمشق زمن نور الدين زنكي ثم بيعه في حلب كان سبب حقه وعدائه للمسلمين^(٣٥).

نقل رينالد نشاطه العدائي تجاه المسلمين خارج حدود أقطاعه سنة ٥٧٥هـ / ١١٨١م عندما أنتهك الهدنة التي كانت معقودة بين المسلمين والصليبيين عندما خرج على رأس قوة من رجاله حتى وصل الى تيماء الواقعة في منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة^(٣٦) والتي وصفها صلاح الدين في إحدى رسائله للخليفة العباسي بأنها (دهليز المدينة)^(٣٧)، وكان يهدف من وراء هذه الحملة مهاجمة المدينة المنورة، ولكن عز الدين فرفشاه الذي كان صلاح الدين قد أستتابه بدمشق ما أن بلغه ذلك حتى جهز العساكر بدمشق وهاجم إقطاع الكرك مما جعل رينالد يعدل عن فكرته ويعود إلى الكرك للدفاع عن ممتلكاته^(٣٨).

والواقع أن ~ العداء للإسلام التي تواصلت في ذات رينالد جعلته يزداد إصرارا على تنفيذ فكرته التي لخصها العماد الأصفهاني^(٣٩) بقوله: " كان للفرنج مقصدان، أحدهما قلعة

أيلة التي هي على فوهة بحر الخجاز ومداخله والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم في ساحته ، فمهد لحملته المقبلة بمناوشات حاول خلالها مهاجمة أيلة ولكن حاميتها تمكنت من صدده عندئذ أعد رينالد سنة ١٢٧٨م / ١٢٨٢م مراكب مفصلة من أخشاب غابات الكرك ثم نقلها على ظهور الجمال بواسطة بعض البدو إلى خليج العقبة ^(٤٢)، حيث ركبت هناك وأصبح الأسطول الصليبي يتكون من خمسة سفن كبيرة مطلية بالدهان الأسود لغرض التمويه وعدد كبير من المراكب الصغيرة، وينفرد بن أبي الدم ^(٤٤) بذكر عددهم قائلا: أنها كانت مشحونة بألف وخمسمائة فارس وعدد من القراصنة المحليين ومعدات الحرب ^(٤٥)، وأبحر الأسطول إلى جزيرة أيلة وهاجمها، إلا أنه عجز عن احتلالها نظرا لقوة تحصيناتها وإستبسال المدافعين فيها، ولما عجز عن بلوغ هدفه أبقى رينالد سفينتين تحاصرانها وتمنع أهلها الماء والمؤن ^(٤٦)، وسار ببقية قواته جنوب عيذاب على الساحل الغربي للبحر الأحمر ^(٤٧)، فقتلوا وأسروا وأحرقوا في بحر القلزم نحو ~ عشرة ~ ^(٤٨)

ثم نزل الصليبيون على بحر عيذاب وهاجموا قافلة كبيرة من الحجاج فقتلوا كافة أفرادها كانت قادمة من قوص إلى عيذاب، وأخذوا من عيذاب الميزة النعد أرسلها إلى الحرمين الشريفين، ثم واصل الأسطول الصليبي سيره في البحر الأحمر وهاجم سواحل تهامة واليمن، وأحرق كافة السفن التي قابلها في طريقه وأثارت أعماله الخوف والهلع في نفوس الناس هناك ^(٤٩)، ويصف ابن الأثير ^(٥٠) الحالة بقوله: " وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا قط لا تاجرا ولا محاربا " .

وهكذا أصبح الأسطول الصليبي مسيطرا على البحر الأحمر قرابة السنة ^(٥١)، ويبدو أن ثقل أحمالهم بما غنموه من أموال وأسرى جعلهم يبحرون ثانية إلى ساحل الحجاز لغرض تنفيذ هدفهم الآخر وهو أنتهاك حرمة المسلمين لأقدس مقدساتهم بهدم الكعبة والعبث بقبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ^(٥٢).

إرتاع المسلمون في المنطقة لهذا الحدث الخطير وثارت مشاعر الغضب والسخط في نفوسهم، هذا في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين بدمشق فارسل إلى أخيه الملك العادل نائبه على مصر موضحا خطورة الموقف ويأمره بإعداد أسطول قوي في البحر الأحمر،

أسندت قيادته للحاجب حسام الدين لؤلؤ، وشحن هذا الأسطول ببحارة ومقاتلة من المغاربة
المجاهدين الذين عرفوا بمهارتهم في قيادة السفن والملاحية في البحر^(٥٣)، وكانوا على
دراية بمقاتلة الفرنجة لمخالطتهم بهم في الأندلس وسواحل المغرب، وقد رأى حسام الدين
أن عليه في بادئ الأمر القضاء على قوة الصليبيين في شمال البحر الأحمر بقطع إتصالهم
بقواتهم في الجنوب. هذا في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يضيّقون الخناق على جزيرة
أيلة فهاجمهم وأحرق سفنهم بواسطة النار الأغريقية فأسر وقتل عدد كبير منهم إلى البر فقد
وقع بعد ذلك يتعقب السفن الصليبية عند عيذاب لكنه لم يجد أثرا للأسطول الصليبي سوى
ما تركه من آثار الدمار والخراب فيها^(٥٥)، فتعقبهم في الوقت الذي أوغل فيه الصليبيون
إلى رابغ^(٥٦) الميناء الحجازي القريب من مكة، ثم توجهوا نحو الشمال بعد أن تركوا
امتعتهم على ساحل الحوراء^(٥٧)، وساروا باتجاه المدينة المنورة بقيادة رينالد مستعينين
بأدلاء من البدو ومعهم ثلاثمائة رجل من فرسان الداوية^(٥٨) الذين عرفوا بشدة حقدهم
وكرهيتهم للمسلمين. وأخيرا أدرك حسام الدين الأسطول الصليبي راسيا في الحوراء
فانقض عليه واحرقه بعد قضائه على القوة الصليبية التي كانت تتولى حراسته وأطلق سراح
التجار ورد عليهم أموالهم، وأدرك في ذلك حاجته للخيل لملاحقة رينالد وأتباعه فاستعان
بخيول القبائل العربية القاطنة هناك لمطاردة الصليبيين^(٥٩)، الذين كانوا يعانون من الحر
الشديد والعطش^(٦٠)، وأدركهم بعد مطاردة استمرت خمسة أيام وهم على مسيرة يوم واحد
من المدينة المنورة، وفوجيء رينالد بذلك فما كان منه إلا اللجوء مع بعض جنوده إلى
المرتفعات وطاردهم حسام الدين وتمكن من قتل وأسر معظمهم^(٦١)، باستثناء رينالد فقد
إتجه نحو الشمال وتمكن من الهرب بأعجوبة إلى تبوك^(٦٢)، التي كان قد أبقي فيها قوة من
جيشه لغرض منع أية محاولة تعرضية تقوم بها القوات الإسلامية تجاه حملته البحرية^(٦٣)،
ومنها لجأ إلى حصن الكرك يلحق جراحه ويفكر بمحاولة غادرة أخرى تجاه المسلمين.

أما بالنسبة للأسرى للصليبيين الذين كان عددهم مائة وسبعين رجلاً^(٦٤)، فقد
لقدّمهم حسام الدين إلى أسطوله وكان موسم الحج قد قرب فأرسل اثنين مهم إلى - حيث
نحرقهما هناك كما تنحر البدن التي تساق إلى الكعبة^(٦٥) وعاد بالأسرى الآخرين إلى مصر
فكان دخوله القاهرة ومعه الأسرى يوماً عظيماً بالنسبة للمسلمين^(٦٦).

وقد شاهد الرحالة ابن جبير^(٦٧) أعداد كبيرة من كبيرة هؤلاء الأسرى أثناء تواجده
في الأسكندرية سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م يطاف بهم على ظهور الجمال بالمقلوب في شوارع
الأسكندرية بين قرع الطبول والنقر على الأبواق ثم أعدموا جميعاً جزاء لهم ورعاً لمن
تسول له نفسه الاعتداء على الحرمين الشريفين، ويذكر العماد الأصفهاني^(٦٨) سبباً آخر
كان وراء أعدام هؤلاء الأسرى وهو أن صلاح الدين الأيوبي أوعز إلى أخيه الملك العادل
" بضرب رقابهم وقطع أسبابهم، بحيث لا يبقى منهم عين تعرف ولا أحد يخبر طريق ذلك
البحر أو يعرف " ويتضح من هذا النص حرص السلطات العربية الإسلامية على عدم
أطلاع الأوروبيين على طرق وأسرار الملاحة والتجارة في البحر الأحمر.

أن محاولة رينالد مهاجمة موانئ البحر الأحمر ومحاولة الاعتداء على الحرمين
الشريفين كان لها الأثر الكبير سياسة السلطات الإسلامية نحو منع للتجار الأوروبيين من
مزاولة أي نشاط تجاري في البحر الأحمر^(٦٩)، أي بعبارة أخرى أن السلطات المصرية
عمدت إلى تقييد حرية الحركة بالنسبة للأوروبيين حتى على موانئ مصر المطلّة على
البحر المتوسط حرصاً منها على تشديد الرقابة على البحر الأحمر فعلى سبيل المثال هناك
رسالة وصلت إلى عدن من رجل من الأسكندرية خلال السنوات الأخيرة من حكم صلاح
الدين يعبر فيها عن تفهمه للسبب الذي جعل المسؤول عن ميناء الأسكندرية ولمنعه من
السفر إلى عدن وذلك للاشتباه به كونه قدم إلى الأسكندرية على ظهر قارب فرنجي^(٧٠).
فضلاً عن أن محاولة رينالد هذه أثارت مشاعر المسلمين وازدادت الدعوة للجهاد، وحالت
هذه المحاولي أيضاً دون قيام أي تعاون بين ملوك بيت المقدس والأمراء المسلمين^(٧١).

أثر فشل محاولة رينالد في التعرض للبحر الأحمر أدرك الصليبيون صعوبة تحقيق
هدفهم في الهيمنة على ذلك البحر وتجارته طالما كانت هناك سلطة قوية في مصر،

وهذا يفسر لنا إلى حد كبير تحول سير الحملات الصليبية من بلاد الشام إلى مصر. وأن شذت عن هذا الاتجاه الحملة الصليبية الرابعة ١٠٩٩م/٢٠٢م، وتجهت إلى القسطنطينية بدلا من مصر حسب ما كان مخطط لها من قبل البابوية فإن باقي الحملات أتجهت إلى مصر منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي خاصة (٧٢)، وأن مصر وأن مصر قد أصبحت آنذاك مركز القوة العربية الإسلامية، وإنساققت إليها الأغراض التجارية للمدن التجارية الإيطالية، فصار من اليسير على هذه المدن أن تتصل من مصر إلى البحر الأحمر وتجارته وتجارة المحيط الهندي (٧٣).

أمام الفشل الذريع الذي واجه دعاة الحركة للصليبية في إحتلال مصر والهيمنة على البحر الأحمر وظهور الاتجاه العلماني في سياسة المدن التجارية الإيطالية التي وجدت أن مصالحها التجارية تقتضي أن تكون لها علاقة إيجابية مع السلطات المصرية تضمن من خلالها الحصول على امتيازات تجارية تحقق لها أرباح طائلة (٧٤)، وبالمقابل انتهت السلطات الإسلامية منذ عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه للعوائد المالية الكبيرة المتحققة لها عن ازدهار التجارة مع المدن الإيطالية فشجعت تلك العلاقات (٧٥) وانتهت البابوية لهذا التحول الجديد وما يشكله من خطر على سياساتها فلجأت هي وحلفاتها من زعماء الغرب الأوربي إلى اعتماد سياسة الحصار الاقتصادي على مصر وبلاد الشام، ولتحقيق هذه السياسة ينبغي إنشاء قوة بحرية لمراقبة سواحل مصر وبلاد الشام على البحر المتوسط (٧٦)، وذهبوا إلى أبعد من ذلك لأكمال فرض الحصار الاقتصادي عندما فكروا في السيطرة على البحر الأحمر لقطع تجارة العرب مع الشرق الأقصى. ولتنفيذ ذلك يستلزم على البابوية أمرين: الأول هو البحث عن حليف لها مع إحدى القوى الغير إسلامية الواقعة قرب المدخل الجنوبي للبحر الأحمر لتساعد الصليبيين وهي الحبشة لتنفيذ فكرتهم في الهيمنة على البحر الأحمر فهو البحث عن طريق جديد يوصلها إلى الهند، وبالتالي القضاء على السيادة العربية لتجارة الشرق عبر البحر الأحمر (٧٨).

أن فكرة أشتراك الأقباش في المشروع الصليبي الهادف للسيطرة على البحر الأحمر وتجارته ومهاجمة مصر في الفترة المتأخرة للحروب للصليبية لم تكن وليدة الصدفة

فقد أنتهت السلطات الإسلامية لذلك فتوجه صلاح الدين إلى اليمن كما ذكرنا فكان بمثابة إجراء وقائي لأي خطر يتهدد المنحل الجنوبي للبحر الأحمر، والواقع أن وجود جالية من الأقباط معيمة في بيت المقدس ووجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة أمر له أهميته من حيث اطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أول بأول (٧٩)، ولم يغيب عن البابوية وأعاونها في غرب أوروبا فكرة الاستفادة من الحبشة في إغلاق الباب الجنوبي للبحر الأحمر.

ويبدو أن البابوية شجعت فكرة إشراك الحبشة بالمشروع الصليبي، ويتضح هذا من خلال الاتصالات التي أجرتها مع ملوك الحبشة من خلال مبعوثيها فتعود أولى الاتصالات إلى سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م عندما أرسلت أحد رجالها ويدعى فيليب إلى الحبشة حاملا معه رسالة إلى مليكها بريستر يوحنا يلتمس منه المساعدة في قتال المسلمين على أن فيليب على ما يبدو أنهى رحلته من الحبشة من دون أن تحقق هذه الرحلة نتائج محسومة (٨٠)، فنذكر أن الراهب الدومنيكاني وليم آدم الذي اختاره البابا نيقولا الرابع سنة ٧٥٠هـ / ١٣٠٥م للتبشير في الشرق زار دولة مغول فارس وأنقل إلى عدن ثم إلى الحبشة، ثم عاد إلى أوروبا سنة ٧٠٥هـ / ١٣١٦م (٨١)، وفي السنة ذاتها أرسل البابا يوحنا الثاني والعشرون سفارة من الدومنيك إلى الحبشة ولكن رجالها وقعوا في قبضة المماليك، وهناك سفارة أخرى واجهتها نفس المصير سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م (٨٢)، ويبدو أن سلاطين الممالك قد أنتبهوا لتلك الاتصالات بين الصليبيين وملوك الحبشة فأحاطوا لذلك من خلال المراقبة الدقيقة للبحر الأحمر وعدم السماح للأوربيين بأجتيازه إلا بتصريح خاص من السلطان المملوكي (٨٣).

يبدو أن الاتصالات الأنفة الذكر قد شجعت ملوك الحبشة للسهم في المشروع الصليبي، فعندما بلغ ملك الحبشة نبأ إشارة لوزنجان ملك قبرص على الأسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م أعد جيشا كبيرا زحف به تجاه الشمال لمهاجمة دولة المماليك من الجنوب، ولكنه لم يكد يقترب من حدود مصر حتى علم بأنسحاب لوزنجان من الأسكندرية فقف عاندا إلى بلاده بعد أن خسر أعداد كبيرة من جنده أثناء الانسحاب (٨٤).

وجهت هنالك محاولة أخرى لمهاجمة مصر من لدن ملك الحبشة اسحق الأول سنة

٨١٧هـ / ١٤١٤م وبالتنسيق مع ملوك غرب أوربا، فقد أرسل ملك الحبشة تاجرا فارسيا وهو علي نور الدين التبريزي الذي غادر الحبشة إلى أوربا عن طريق مصر، وقد أبلغ التبريزي رسالة ملوك أوربا للقيام بعمل مشترك ضد مصر، وتم وضع خطة تنفيذ عمل عسكري تقويم بموجبه الأساطيل الأوربية بمهاجمة مصر من جهة الشمال وتهاجم الحبشة مصر من جهة الجنوب، وأثناء عودة التبريزي إلى مصر في طريقه إلى الحبشة وشى به أحد رفاقه فقبض عليه السلطان برسباي وقتله^(٨٤)، وعلى الرغم من كثرة الإتصالات بين البابوية وملوك أوربا مع الحبشة للقيام بعمل عسكري يستهدف السيطرة على مصر والبحر الأحمر إلا أن المشاريع لم تأخذ طريقها نحو التنفيذ لبعد المسافة بين الحبشة وغرب أوربا من ناحية ووجود سلطة قوية في مصر تعيق وتحبط أية محاولة للإتصال العسكري المباشر بين الطرفين من ناحية أخرى، هذا بالإضافة إلى أن الخلاف المذهبي ما بين البابوية والحبشة حال دون قيام تحالف جدي بين الطرفين.

أما عن مسألة البحث عن طريق آخر يوصل الغرب الأوربي بتجارة الشرق الأقصى فقد تبنت البابوية هذا المخطط الصليبي وتحملت له وباركت البابوية عملية الأنخراط في الحملات البرتغالية، فكان البابا يعد المشتركين فيها بالنجاة من النار يوم الحساب، فكانت سفنهم تخرج وعلى أشرعها ترسم إشارة الصليب، وكذلك على صدور الملاحين وعبر عما نؤيل ملك البرتغال عن أغراض ذلك المخطط بقوله: " أن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق " ^(٨٥). ويتضح من ذلك بأن هذا المخطط هو أمتداد للحملات الصليبية على بلاد الشام أو مصر وصفه أرنست باركر^(٨٦) ، بأنه يشكل الحرب الصليبية الأخيرة .

كان للبرتغال الدور الرائد في اكتشاف رأس الرجاء الصالح " رأس العواصف " الاسم المتعارف عليه قبل اكتشافه، فقد تمكنوا وبمساعدة البحارة والجغرافيين الجنوبيين من الوصول إلى القمة الجنوبية لأفريقيا والدوران حولها سنة ١٤٩٣هـ / ١٤٨٧م، وبذلك أصبح الطريق ممهدا للوصول إلى الهند^(٨٧)، وبعد هذه الخطوة باتتني عشرة سنة أرسلت البرتغال

البرتغال حملة بحرية بقيادة فاسكو داجاما الذي استطاع الدوران حول رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند سنة ١٤٩٨هـ / ١٤٩٨م، وبعد أن ثبتت أقدام البرتغاليين في الهند مرة ثانية في المحيط الهندي خاصة بعد عودة فاسكو داجاما إلى الهند مرة ثانية بحملة كبيرة سنة ١٥٠٣هـ / ١٥٠٣م، وحاول فرض الهيمنة على البحر الأحمر، فقد خمسة سنين من أسطوله بصفة دائمة في مياه المحيط الهندي لحماية المحطات التجارية البرتغالية فيه ولسد المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وإبعاد العرب عن تجارة الهند^(٨٨) فعملوا على مهاجمة السفن العربية التي تحاول الخروج من البحر الأحمر أو الدخول عليه، وكان بمثابة تهديد خطير للسيادة العربية الإسلامية على البحر الأحمر وعلى تجارته مع الشرق^(٨٩)، على الرغم من محاولات المماليك لدرء هذا الخطر إلا أنهم عجزوا عن ذلك^(٩٠)، وكانت معركة ديو البحرية على ساحل ملبار سنة ١٥٠٩هـ / ١٥٠٩م التي أحرز فيها البرتغاليون نصرا حاسما على المماليك^(٩١)، فقد أنهت تلك المعركة السيطرة العربية الإسلامية على العريق التجاري البحري على الهند وتضاءلت الأهمية التجارية للبحر الأحمر^(٩٢)، وبذلك انتهت صفحة الصراع على البحر الأحمر لصالح الأوربيين الصليبيين ولتبدأ صفحة جديدة في العصر الحديث لأنزال نعيش أحداثها اليوم، فإذا كان البحر الأحمر طريق التوابل والبخور بالأمس، فالיום أصبح طريق ناقلات النفط عبر قناة السويس ومجالا لغرض الهيمنة الأمبريالية على المنطقة العربية.

الهوامش:-

- (١) قاسم عبدة قاسم: ماضية الحروب الصليبية (الكويت ١٩٩٠)، ص ٣٥.
- (٢) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة: حسن حبشي (القاهرة: ١٩٥٨)، ص ١٩.
- (٣) Setton, K.K.A History of the Crusades, (Pennsyl / Vania, 1958) Vol.I.P.252;
- مصطفى حسن الكنتاني: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي، (بيروت ١٩٨١)، ص ٧٩.
- (٤) نيقولا زيلدة: الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت ١٩٦٢)، ص ٢١٥. للمزيد من المعلومات عن تجارة الشرق، انظر: شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية (الكويت ١٩٤٠)، ص ٢١٤ - ٢٢٦.
- (٥) سيد احمد علي القنصري: الرومان والبحر الأحمر، مجلة الدارة، ع ٢، للرياض ١٩٨٨، ص ٢٢.
- (٦) عبد العزيز سالم: تاريخ الدول العربية (الأسكندرية ١٩٧٤)، ص ١٢.
- (٧) القنصري: الرومان والبحر الأحمر، ص ٢٥ - ٢٦.
- (٨) المفصل في تاريخ الغرب قبل الإسلام (بيروت ١٩٧٨ م) / ٥١٧ - ١٨.
- (٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل (بيروت بلا سنة طبع)، ١٣٩٢ / ٢ - ١٤٢.
- (١٠) القنصري: الرومان والبحر الأحمر، ص ٤٤.
- (١١) السيوطي: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين عن القائلين بأمر الأمة (القاهرة، ١٣٥١ هـ)، ص ١٨٩.
- (١٢) سعدا ملجذ: البحرية في مصر الإسلامية (القاهرة ١٩٦٧)، ص ٦٥، محمد كريم إبراهيم: جزر دهلك في البحر الأحمر، مجلة الخليج العربي، ع ٢١٤، جامعة البصرة ١٩٨٩، ص ١٢٥.
- (١٣) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية (بيروت ١٩٦٧)، ١ / ٩٢.
- (١٤) Cahen, C. La Syrie. du Nerd alepoque des Croisadeset La princpaute Paris, 1970 P. 476.
- (١٥) وهي ميناء مصر الى مكة والمدينة ويذكر أنها ضربت في القرن الخامس، وأنشأ التجار بلدة جديدة في مكان القارزم وأختاروا لها أسم السويس لتكون مرفأ لمصر على البحر الأحمر، الحموي: معجم البلدان (بيروت ١٩٥٧)، ٣٨٨ - ٣٨٧ / ٤.
- (١٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٥) ٣ / ٣٢٩، توفيق سلطان اليوزيكي: تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المملوكي (الموصل ١٩٧٥)، ص ٨٠ - ٨١.
- (١٧) بلدة تقع على ساحل البحر الأحمر، وهي المنصورة أبن الصعيد في مصر، وتعد من البر المركز التجاري في ذلك العصر، الحموي: معجم البلدان ١ / ١٧١.
- (١٨) بلد مشهور على الساحل قرب عذاب يرفأ اليه السفن القادمة من جدة، معجم البلدان ٣ / ٢٧٦.
- (١٩) محمد كريم: عدن - دراسة في أحوالها السياسية والإقتصادية - رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٨١، ص ٧٩.

(٢٩) أين الأثير: للكامل ٤٧/١١، أين واصل: مفرج للكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشعال (الطبعة ١٩٥٧)، ١٠١/٢ - ١٠٢، المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيلع.

(٤٠) اليرق لشملي، تحقيق: فلاح صالح حسين (عمان ١٩٨٧)، ٧٣/٥.

(٤١) نص المصدر، ص ٧٢، أبو شامة: الروضتين ٢/ ٣٥.

(٤٢) أين جبير: أين جبير (بيروت ١٩٨١)، ص ٤٦، أبو شامة: الروضتين ٢/ ٣٥.

(٤٣) New bold OP. Cit P.220.

(٤٤) التاريخ الإسلامي المختصر، تحقيق: جزيل الجومرد، رسالة دكتوراه (أستراليا ١٩٨٤)، ص ٤٩٨.

(٤٥) العماد الأصفياتي: سنا اليرق، ص ٧٢. New bold OP. Cit P.221

(٤٦) العماد الأصفياتي: اليرق لشملي ٦٩/٥ - ٧٤، أين الأثير: للكامل ٤٩٠/١١ - ٤٩١، أبو شامة: الروضتين ٢/ ٣٧.

(٤٧) أين جبير: رحلته، ص ٣١، المقريري: السلوك ١/ ٧٩.

(٤٨) أين جبير: رحلته، ص ٣١ - ٣٢، العماد الأصفياتي ٧٤/٥، أين واصل: مفرج للكروب ٢/ ١٢٧ - ١٣١.

(٤٩) العماد الأصفياتي: سنا اليرق ٧٣/٥، أبو شامة: الروضتين ٢/ ٣٧، المقريري: السلوك ١/ ٧٩.

(٥٠) أين الأثير: للكامل ٤٩٠/١١، أين واصل: مفرج للكروب ٢/ ١٣٠، أبو شامة: الروضتين ٢/ ٣٧.

(٥١) New bold OP. Cit P.222

(٥٢) أين جبير: رحلته، ص ٣٢، أين العليم: زبدة الحطب في تاريخ حطب، تحقيق: سامي الدهان (دمشق ١٩٦٨)، ٩٦/٣.

(٥٣) أين جبير: رحلته، ص ٣٢، أين الأثير: للكامل ٤٩٠/١١، أبو شامة: الروضتين ٢/ ٣٥، المقريري: السلوك ١/ ٧٩.

(٥٤) أين واصل: مفرج الكروب ١٢/٢، أبو شامة: الروضتين ٢/ ٣٧، المقريري: السلوك ١/ ٧٩.

(٥٥) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٣٧.

(٥٦) ولا على عشرة أيام من الجحفة فيها بين الإيواء والجحفة وساحل الحوراء، تقع الى شمال جدة على طريق المدينة، الحموي: معجم البلدان ٢٧/ ٧٢٧، غوانمة: أمانة للكرك، هلمش ١١٩، ص ١٣٣.

(٥٧) مرقا من مصر الى المدينة، الحموي: معجم البلدان ٢/ ٣١٦.

(٥٨) مجموعة دينية عسكرية ظهرت سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م في القدس تدارت نفسها لعملية الحجاج المسيحيين القادمين الى القدس وحصلوا من الملك بلدوين الثاني على مسكن ليم بالقرب من هيكل سليمان ومن هنا جاءت تسميتهم بفرسان المعبد، ساهموا بشكل واضح في الحروب التي خاضها الصليبيون ضد المسلمين وكان شعارهم الصليب الأحمر، وتسميان: تاريخ الحروب ٢ / ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٥٩) العماد الأصمبتي: منا البرق ٥ / ٧٤ - ٧٥. أين الأثير: الكامل ١١ / ٤٩١، أين واصل: مفرج للكروب ٢ / ١٣١.

New bold, Op.Cit 224. (٦٠)

(٦١) أين واصل: مفرج للكروب ٢ / ١١٨، أبو شامة: للروضتين ٢ / ٣٧، المقرئ: السلوك ١ / ٧٩.

(٦٢) سبط أين الجوزي: مرآة الزمان (حيدر قبا ١٩٥٠). ٨ / ٣٦٩، لامب: شطة الإسلام، ص ٩٦.

(٦٣) سنلوي: للتاريخ الحربي، ص ١٤١.

(٦٤) أين شذلا: للتوادر السلطانية والمحلسن لليوسفية (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٢٢٩، سبط أين الجوزي ٨ / ٣٦٩، أبو المحلسن بهاء الدين بن رافع الأسدي، أبو شامة: للروضتين ٢ / ٣٧.

(٦٥) العماد الأصمبتي: منا البرق ٥ / ٧٣، أين الأثير: الكامل ١١ / ٤٩١، أبو شامة: للروضتين ٢ / ٣٥.

(٦٦) غرقمة: لأمره للكرك، ص —.

(٦٧) رحتة، ص ٣١.

(٦٨) منا البرق ٥ / ٧٣، أبو شامة: للروضتين ٢ / ٣٦.

(٦٩) أحمد دراج: عذاب من الثغور العربية المنتثرة، مجلة الموزخ العربي، ع ٧، (بغداد بلا سنة طبع)، ص ٦٠.

Goitein, S.d Studies Islamic History and in stitutions Leiden 1966 P. 298. (٧٠)

(٧١) عاشور: الحركة الصليبية ٢ / ٧٨٨.

(٧٢) عاشور: تحركة الصليبية ٢ / ٩٦٢ - ٩٦٣.

(٧٣) باركر: الحروب الصليبية، ص ٩٧٠.

(٧٤) عاشور: الحركة الصليبية ٢ / ١١٩٩، تكتاني: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص ٢٨٣، ٣٦٢ - ٢٦٦.

(٧٥) قاسم عبدة: ماهية الحروب الصليبية، ص ٢١٧ - ٢١٨.

- (٧٦) عاشور: الحركة الصليبية ١١٩٩ / ٢ - ١٢٠١، حياة ناصر الحجبي: العلاقات بين سلطنة المماليك والولايات الأسيانية (الكويت ١٩٨٠)، ص ٣٥٤.
- (٧٧) باركر: الحروب الصليبية، ص ١٣٦.
- (٧٨) عاشور: الحركة الصليبية ١٢٠٧ / ٢، ترفيق اليرزبكي: تجارة مصر البحرية، ص ٤٣.
- (٧٩) فتحي غيث: الإسلام والحضبة عبر التاريخ (القاهرة بلا سنة طبع) ص ١١٩.
- (٨٠) رنسيان: تاريخ الحروب ٦٨١ - ٦٨٢، عاشور: الحركة الصليبية ١٢٠٩ / ٢.
- (٨١) عاشور: الحركة الصليبية ١٢٠٩ / ٢.
- (٨٢) عاشور: الحركة الصليبية ١٢١٢ / ٢، اليوزبكي: تجارة مصر. ص ٤٤.
- (٨٣) عاشور: الحركة الصليبية ١٢٠٩ - ١٢١٠.
- (٨٤) المقرئزي: الأعلام بأخبار من بأرض الحضبة من ملوك الإسلام (بيدن ١٧٩٠)، ص ٤، عاشور: للحركة الصليبية ١٢٦٠ / ٢.
- (٨٥) السيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن (القاهرة ١٩٧٤)، ~~~~~.
- (٨٦) الحروب الصليبية: ص ١٤١، جمال حمدان: استراتيجيات الاستعمار والتحرير (بيروت ١٩٨٣)، ص ٥٤.
- (٨٧) سعد زغلول عبد ربه: البرتغاليون والبحر الأحمر، مجلة الدارة، ع ٢، (الرياض ١٩٨٨)، ص ١٠٩ - ١١٠.
- (٨٨) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوزبا العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٥٧٢.
- (٨٩) سعد زغلول: البرتغاليون والبحر الأحمر، ص ١١١.
- (٩٠) ابن ألياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى (القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٣)، ٢٠٣/٥.
- (٩١) للمزيد من المعامات عن دور المماليك ومواجهة البرتغاليين، ينظر: ابن ألياس: بدائع الزهور ٨٤ / ٤ - ٨٥، العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٢٦٦ - ٢٦٧، نعيم زكي فيمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (القاهرة ١٩٧٣)، ص ٣٠ - ٣١.
- (٩٢) أحمد دراج: المماليك والفرنج في القرن الخامس (القاهرة ١٩٦١)، ص ١٣٧.